الصمت يحفظ راتب الإنسان وارتقاءه سلّم التواطؤ الجماعي

حيدر حيدر في «يوميات الضوء والمنفى» حكاية الإنسان الباحث عن ذاته وحريته من أسرته إلى المجتمع

مراجعة لحكاية كانت ثورية ولامست الهزائم وحدود الخيبة فعادت إلى ذاتها

إسماعيل مروة

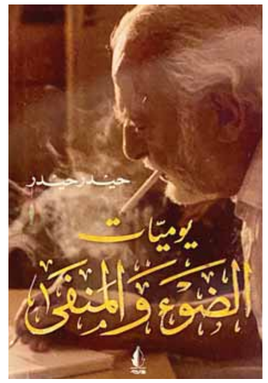

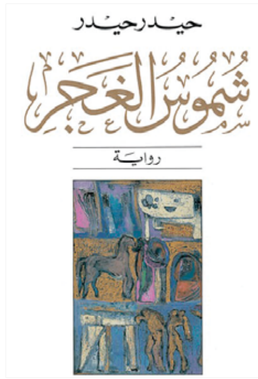

دافع ما كان يدفعني لمعرفة الأديب الكبير حيدر حيدر، وللغوص في تفاصيل أدبه وحياته، ومن اللقاء الأول مع نتاجه (الفهد) ومتابعتي للفيلم الذي صار من كلاسيكيات السينما السورية والآسيوية بتوقيع المخرج الكبير الراحل الصديق نبيل المالح، من اللقاء هذا صرت أبحث عن كتابات الكاتب لأقرأها، وحين زرت القاهرة في إحدى زياراتي ضربت موعداً مع الدكتور جابر عصفور رئيس المجلس الأعلى للثقافة يومها، وفي أثناء جلستنا تمت دعوته على عجل للقاء مع الروائي إبراهيم أصلان وعلي أبو شادي لمناقشة ما حدث من أزمة في مصر حول قيام هيئة الثقافة بطباعة رواية حيدر حيدر، (وليمة لأعشاب البحر) فعاد الكاتب من جديد إلى دائرة التيقظ عندي، وعدت لقراءته واقتناء ما فاتني من نتاجه، وحاولت مرات أن أذهب للقائه، لكن كان هناك من يحول بين تحقيق رغبتي وبيني، فهناك من يقول: الكاتب لا يستقبل أحداً، وهناك من يقول شيئاً آخر.

لليوميات حكاية

في معرض الشارقة للكتاب كان اللقاء غير المرسوم مع د. مجد حيدر ابن الكاتب، وصاحب دار ورد للطباعة، وهو رجل أعرفه منذ ثلاثة عقود، وألتقيه كثيراً، لكن ما يربطنا لم يرتقِ إلى مستوى يقنع كلينا، وفي صباحات المعرض الهادئة تحاورنا طويلاً، وأهداني صداقتي ووعداً للقاءات مستمرة في دمشق مع (يوميات الضوء والمنفى) لحيدر حيدر الصادر هذه الأيام في دمشق، وهي يومياته ومذكراته التي تحمل سيرته الذاتية، وليست السيرة الذاتية كلها، هي مؤشرات وروادس ومنارات لرحلة رآها مليئة بالتناقضين الضوء والمنفى، والتي تعطي صورة مذهلة في قسوتها وطزاجتها، في ثوريتها واستسلامها، في تمردها وتسليمها، في غلبانها وسكونها، وتمثل قراءة هذه اليوميات فرصة للتعرف إلى نصف قرن من الوعي عند جيل أخذته الثورة، وأهمدته التحولات والحقائق، يوميات تجوب الوطن العربي كله، وتحمل هاجساً واحداً (العقل والحرية).

السياسة محذور من البداية

لم يشأ الكاتب أن يدوّن مسيرته، واختار أسلوب (اليوميات) مازجاً ما بين أسلوب اليوميات الحادّ، وبين الأدب والهذيان والتحليل الفكري، حين يهرب من التدوين اليومي الحرفي، وإن كان الفصل يحوي تاريخاً وشهراً وعاماً، لكن الكاتب يهرب ليكتب شيئاً عن الحرية والدين والعقل، عن الشافعي وأبي حامد الغزالي وابن رشد، عن غيفارا وكاسترو وماركس، وتحت جنح المكان يتسلل الكاتب لتشريح المجتمع العربي وتوجهاته الفكرية، ما بين الماضوية والعودة إلى الماضي البعيد والانسلاخ عن الحاضر والعقل، وبين الحياة العصرية والحداثية، وفي غمرة اليوميات لم ينس حيدر حيدر أن يعقد موازنات ومقاربات لاهوتية، متحدثاً عن المعركة بين اللاهوت المسيحي والحضارة الحديثة والتي انتهت بانتصار العقل، أشير إلى هذه العلامات التي تستوقف القارئ عند تعمنه باليوميات، ولن أعمد إلى الاختصار والإيجاز، فذاك أمر عصي يشوه النص الأدبي الجميل والراقي، ولأن حيدر حيدر نفسه قدّم يومياته بما لا يقبل الاجتزاء، وانضمامه إلى العمل الفدائي الثوري، وانتظامه التدريبي القاسي، ومحاكمته لما يراه وما يطمح إليه خير دليل على اكتفائه بالإشارات واللمع، وهو قلما يذكر أسماء كاملة، خاصة في الجوانب السلبية التي ينتقدها.

السياسة والهزائم

حيدر حيدر ودون مقدمات شخص مهمومه بالسياسة والإيديولوجيا، ويستغرب في صفحاته كما في أدبه ألا يتحدث الإنسان بالسياسة، فالسياسة خبز يومي للناس، ويظهر ذلك في حديثه عن البلدان العربية كلها من سورية إلى لبنان والجزائر، وفي دخوله معترك المنظمات الفلسطينية في نداء التحرير والفداء، حيث انتظم في معسكرات تدريبية وصفها بدقة، من يومياته إلى شخوصها والمسؤولين عنها من المدربين والموجهين، يبدو أن الضباط مصرّون على قيامي ببعض المهمات، أشعر بمزيد من الضعف الداخلي، والكثير من الإحساس بأن الأمور عادية رغم إصرار الضباط على استلامي قيادة العناصر.. معظم العناصر تحمل روحاً سلبية ومدركة للأمراض التي تآكل الحزب. الحزب ليس ثورياً سوى بالشعارات والكوادر تحولت أو هي بالأصل انتهازية تعيش تحت ظلال السلطة، هذا الكم من الألم والتشريح لواقع وجد طريقه إلى الكاتب نتيجة الواقع السياسي الذي يراه مرضياً، ويبرز ذلك في تناوله للواقع السياسي بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ «بعد ٥ حزيران كانت هناك فرصة نادرة أمام الأنظمة المحسوبة على الأجيال العربية بأنها تقدمية وثورية، وهذه الفرصة هي بدء الثورة بشكل جديد وخاصة بعد أن بدا واضحاً تعرية سياسة الدولة. وتعرف أن الدولة لا تسمح للمدرسين الشرقيين بالدخول في هذه الأمور. كما تعرف أن مهنتك تربوية محضة، وتعرف أن الماركسية تعادي الدين الإسلامي. وتعرف..

أكملت: وأن الصمت يحفظ راتب الإنسان وارتقاءه سلم التواطؤ الجماعي..»

هذه اليوميات تقدم وبصورة واضحة وجلية بعيدة عن التخييل لوحة للواقع الفكري والاجتماعي والسياسي في مرحلة الخمسينيات والستينيات وإلى نهاية القرن العشرين، وهذه اللوحة تظهر دون أدنى شك الأسباب الجوهرية والأساسية التي أجهضت المشروع التنويري العربي، سواء اتفقنا معه أم اختلفنا، فالمشروع النهضوي الذي يراقبه ولادة الدولة الوطنية في حياة أي شعب من الشعوب هو مشروع فكري وحضاري وسياسي، ولا يكون إلا بالصراع الفكري من مختلف التوجهات، ومهما كان نوعها وتوجهها وإن كان بعضها منبثقاً عن بعض.. فأي خيبة، بل أي خيبات تراقق الإنسان والأديب الذي يحمل بذور التمرد داخله؟

> صورة واضحة وجلية دون اللجوء إلى التخييل لمرحلة من أخطر المراحل

البيئة والحاضنة

كانت هذه يوميات حيدر حيدر المدونة، والتي أشار بداية إلى أنه قام بقراءتها مع زوجته وبإعادة ترتيبها، وأعمل فيها قلمه الأحمر خوفاً من أي محذور، ومع ذلك، فإن الكاتب قدّم صورة نابضة تشبه عالمه الروائي البديع والإشكالي، بل إنه في كثير من المواقع يقترب من أبو علي شاهين.

واليوميات وإن لم تكن سيرة بالمعنى الدقيق، إلا أنها في جانب من الجوانب هي أقرب إلى الدقة، ولو نظرنا إلى صورة البيئة والقرية والبحر والجبل والحالة الاجتماعية أدركنا روح التمرد ومسبباتها، وأدركنا قسوة الظروف التي أنجبت كاتباً عربياً مؤثراً، ويستوقفك الكاتب عند يتمه قبل الأوان بوفاة والده، ولا يتغاضى الكاتب، وبإمكانه أن يفعل، أن يتحدث عن دور المرأة الأم فيما وصلت إليه حياته وحياة الأسرة، وبقيت صورة الوالد تنوس بحب القراءة وشغف المعرفة، وصورة الأم في الاستقرار والزواج ونبذ العلم والتعلم لأنه لا يطعم خبزاً، والصورة المدهشة كانت في الموازنة التي طرحها حيدر حيدر للبصر وغياب الرؤية، وحبه لأمه، ومنازعة النفس، وهي تودع الحياة، فكانت صورة الإنسان والابن الذي لا يستطيع تجاهل أمر في يومياته القاسية، ولا يمكن أن يكون حيادياً مع أم تودع بالفقد الجسدي والبصري.

(يوميات الضوء والمنفى) للكاتب السوري الروائي حيدر حيدر كتاب مرحلة، ووثيقة شاهد معاشر ومعاصر لتحولات المجتمع العربي حتى وصل إلى ما وصل إليه ،ليدخل البلدان باسمه نفسه، ولكن بجواز يحمل اسم دولة أخرى، فلا يعترضه أحد لأنه ما من أحد في تلك الدولة التي يحمل جواز سفرها يمنع من الدخول أو يطلب لأي سبب آخر.

اتفاقية سورية روسية مشتركة في منتدى حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي

وزيرة الثقافة: ماعاشته سورية حرب إرهابية استهدفت التراث المادي الذي أصابه التخريب

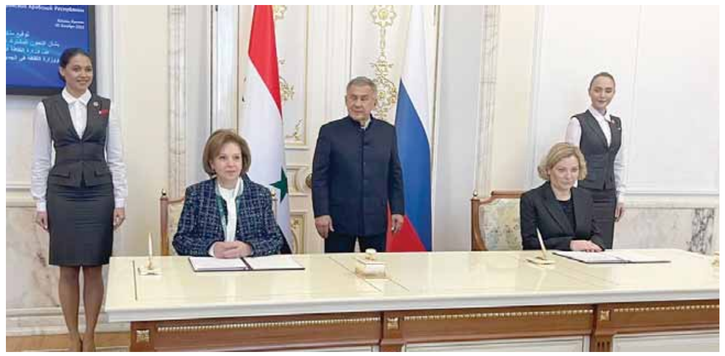

الوطن

على هامش اليوم الأول لانطلاق المنتدى الدولي لاتفاقية «حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي» المنعقد في قازان عاصمة جمهورية تترستان إحدى جمهوريات روسيا الاتحادية، وقعت وزيرة الثقافة الدكتورة لبانة مشوّح مع نظيرتها الروسية أولغا ليوبيموفا اتفاقية تعاون ثقافي بين البلدين بحضور رئيس جمهورية تترستان رستم مينيخانوف، وأركان حكومية، ورئيس لجنة اليونسكو، وأعضاء الوفد السوري المرافق.

وانطلق المنتدى بمشاركة وفد سوري من المختصين في ترميم الآثار، والباحثين الأكاديميين، وألقت وزيرة الثقافة في حفل الافتتاح الرسمي كلمة أكدت فيها أن سورية كانت سباقة في التوقيع على اتفاقية عام ١٩٧٢ لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لإيمانها بأن تراثها العالمي الثقافي فريد من نوعه واستثنائي بكل المعايير، لعمق جذوره في التاريخ، وأصالته، وتنوعه. وأوضحت مشوّح ما عاشته سورية خلال العقد الأخير من سنوات حرب إرهابية استهدفت التراث الثقافي المادي الذي أصابه ما أصابه من تخريب متعمّد، وتنقيب جائر، وسرقة وتهريب. تلاها حصار تمثّل بإجراءات قسرية أحادية الجانب انعكست آثارها السلبية على جهود حماية تراثنا العالمي الثقافي والطبيعي مشيدةً بجهود السلطات الأثرية في هذا السبيل، الذي لم يزد إلا عزماً وتصميماً، وحرصاً على صون تراثنا وضمان استدامته.

> سورية لن تنسى الموقف المنصف المشرف من روسيا الدولة الصديقة

ونوهت وزيرة الثقافة بوقوف روسيا الدولة الصديقة، إلى جانب سورية في صدّ الإرهاب والحدّ من آثار الحصار الجائر. مؤكدةً أن سورية لن تنسى هذا الموقف المنصف المشرّف الذي تقابله اليوم بما تمليه علينا أواصر الصداقة العميقة التي باتت تربط شعبينا. وما التعاون السوري–الروسي الإيجابي في مشروع ترميم قوس النصر في مدينة تدمر الأثرية إلا تجسيد لرغبة مشتركة صادقة في حماية إرث حضاري عظيم بأيد خبيرة.

يذكر أن «المنتدى الدولي لاتفاقية حماية التراث الحضاري والطبيعي العالمي»، يستمر لغاية ٨ كانون الأول الجاري في قازان بمشاركة وحضور شخصيات ثقافية وأكاديمية يمثّلون عدة دول.

برجك اليوم 12/7

نجلاء قباني

الحمل

استخدم دبلوماسيتك ولطفك المعروفيْن عنك في فهم الاحتجاجات الموجودة حولك وتقبل المعاذير والتبريرات وأحط نفسك بأشخاص إيجابيين ومحبين وودودين، واسمع آراءهم. عاطفياً: أمورك العاطفية جيدة فالكواكب مساعدة وتمنحك الوقت والطاقة والدعم لتضع هيكلية جديدة لأهداف أنت تريد تحقيقها.

الثور

دخلك جيد إلا أن مصروفك كبير ففكر بالمستقبل المالي ولا تهدر أموالك على أشياء تستطيع الاستغناء عنها فأمورك المالية هي ما يعنيك اليوم لذلك ركز اهتمامك فيها لتكسب معرفة جديدة. عاطفياً: شهر لتغيرات إلى الأفضل وغالباً سيحمل لك الاستقرار مع أنه قد يحمل السفر والأمور تأخذ طابع السعادة.

الجوزاء

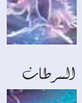

كوكب عطارد الموجود في موقع صديق يجعلك محطاً للأنظار وموضعاً للإعجاب ودخول القمر في برجك يجعلك تحس بأجواء من الحنان والانسجام مع أحبائك. عاطفياً: أمورك العاطفية جيدة وغالباً أنت تفكر بشكل جدي بتغيير حياتك العائلية أو العاطفية وربما منطقة السكن.

السرطان

أجل المهمات المتعبة وإذا كنت تستطيع ولا تعلق أهمية على كلام تسمعه فيزعجك ولا تنجرف وراء عواطف عابرة وغير حقيقية وقد يخيب أملك في بعض المقربين. عاطفياً: أنت هادئ وصوتك منخفض وليس لك مزاج على أي شجار ومهما جرى فقد تفضل العزلة أكثر من التعليق.

الأسد

أنت تنعم بسعادة على صعيد الأمور العاطفية فالأمور إيجابية والفلك يعدك بأوقات جميلة وسعيدة برفقة من تحب ووسط مناسبات اجتماعية واعدة ومسلية والمحيط حولك متعاطف.

عاطفياً: أمورك العاطفية جيدة لأنك تشق طريقك نحو حياة أسعد وأطول وأكثر ضجة وهذا الشهر سيحمل الأفراح.

العذراء

قد تتعرض لتغييرات طارئة في أمورك فكن أكثر دبلوماسية مع أصدقائك والزملاء في العمل أو في الإطار العائلي وربما تسمع أخباراً تقلقك ولا تنسَ أن طاقتك هذا اليوم قليلة وقد تعاني الكسل أو الفراغ أو الملل والإحباط أحياناً.

عاطفياً: لا تجعل حماسك يأخذك بعيداً واحرص على أن تكون قدماك دائماً على الأرض وحاول أن تزيل خلافاتك.

الميزان

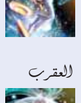

ستحصل على ما تريد ما دمت تملك الشجاعة لتصل إلى هدفك وتضاعف جهودك وربما تدخل مفاوضات ناجحة تسير فيها إلى التغيير نحو الأفضل في عملك وقد تبدأ حياة جديدة تمنحك السعادة. عاطفياً: أمورك العاطفية جيدة لأنها فترة للارتباط والتعارف وخاصة في سفر فأنت تتعرف على أناس جدد وعلاقات تسعدك وقد تتصالح مع أشخاص أنت تحبهم.

العقرب

أنت تمتلك الجرأة والحماس وهو وقت مناسب لتقترب ممن تحب ولتشعر بالاطمئنان بسبب فرضك لإرادتك وشروطك وقبول الآخرين لآرائك ومساعدتهم لك في مشاريعك الجديدة.

عاطفياً: أمورك العاطفية تحمل إشراقاً يغمرك ويمنحك الحرية والفرح والثقة بنفسك وبإمكاناتك الخاصة.

القوس

لا تدع ضيقك من أمر شخصي يؤثر في أمورك العملية وحاول أن تخفف من حدة استيائك فوضعك متقلب وكلما تقدم اليوم ستميل أكثر إلى الشجار فاحمِ نفسك من تسرع.

عاطفياً: الحكمة والهدوء تلزمك اليوم للابتعاد عن كل ما يعقّد حياتك وأنصحك بالاقتراب ممن تحب.

الجدي

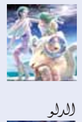

لا ترفض أي عمل تكلف به وحاول أن تضغط على نفسك صحياً لتكمل الأعمال التي تكلف بها وانتبه إلى عملك واستعمل الوقت لمصلحتك في أمورك العملية والمستقبلية.

عاطفياً: أمورك العاطفية هي الأفضل هذا الشهر وقد تكون مصدر سعادة ومصدر ألق وفرح فلا تجعل مضايقاتك تفسد عليك فرحك بالعثور على من يفهمك أو يحبك.

الدلو

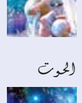

أنت مرتاح وقد تجد علاجاً أو شفاء أو تلقى أخباراً طيبة، كلمتك مسموعة ومؤثرة فاليوم يعدك بلقاءات ونقاشات مهمة مفيدة ستتذكرها لوقت طويل ولكن احذر الإسراف.

عاطفياً: الشهر جيد جداً للعثور على شريك عاطفي أو لترتيب أمورك العائلية والزوجية باتجاه الأفضل.

الحوت

قد تدخل في قيل وقال لن يلزمك لو تمسكت بهدوئك وابتعدت عن مصادر العصبية وانتبه لكيلا ترفع نبرة خطابك أو كلامك وقد تقلقك أمور صحية تخص أحد أفراد العائلة.

عاطفياً: تجاهد لكي تخفي قلقك أو حزنك أو ضيقك عن أقرب المقربين ولذلك قد تميل إلى العزلة أو تعاتب غيرك.